

تفسير البغوي

سورة الفيل .

١ - { ألم تر كيف فعل ربك ب أصحاب الفيل } ؟ وكانت قصة أصحاب الفيل - على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وذكره الواقدي - : أن النجاشي ملك الحبشة كان قد بعث أرياط إلى أرض اليمن فغلب عليها فقام رجل من الحبشة يقال له : أبرهة بن الصباح أبو يكسوم فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى اتصدعوا صدعين وكانت طائفة مع أرياط وطائفة مع أبرهة فتزاحفا فقتل أبرهة أرياط واجتمعت الحبشة لأبرهه وغلب على اليمن وأقره النجاشي على عمله .

ثم إن أبرهة رأى الناس يتوجهون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله فبني كنيسة بصناعة وكتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك بصناعة كنيسة لم يبن لملك مثلها ولست منتهيا حتى أصرف إليها حج العرب فسمع به رجل منبني مالك بن كنانة فخرج إليها مستخفيا فدخلها ليلاً فقد فيها وتغوط بها ولطخ بالعذرة قبلتها فبلغ ذلك أبرهة فقالك من اجترأ علي ولطخ كنيستي بالعذرة ؟ فقيل له : صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلت فحلف أبرهة عند ذلك : ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه بفيله وكان له فيل يقال له محمود وكان فيلاً لم ير مثله عظماً وجسماً وقوه فبعث به إليه فخرج أبرهة من الحبشة سائراً إلى مكة وخرج معه بالفيل فسمعت العرب بذلك فأعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له : ذو نفر بمن أطاعه من قومه فقاتلته فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر فقال : أيها الملك لا تقتلني فإن استبئاني خير لك من قتلي فاستحياه وأوثقه وكان أبرهة رجلاً حليماً .

ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم خرج نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن فقاتلوا فهزهم وأخذ نفيلاً ف قال نفيل : أيها الملك إني دليل بأرض العرب وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة فاستبئناه وخرج معه يده حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال من ثقيف فقال : أيها الملك نحن عبيدك ليس لك عندنا خلاف وإنما تrepid البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا معه أبا رغال مولى لهم فخرج حتى إذا كان بالمغمسم مات أبو رغال وهو الذي يرجم قبره وبعث أبرهة من المغمسم رجلاً من الحبشة يقال له : الأسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغاره على نعم الناس فجمع الأسود إليه أموال الحرم وأصحاب عبد المطلب مائتي بعير .

ثم إن أبرهة بعث حبطة الحميري إلى أهل مكة وقال : سل عن شريفها ثم أبلغه ما أرسلك به

إليه أخبره أني لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت فانطلق حتى دخل على مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال : إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوا إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم .

قال عبد المطلب : ما له عندنا قتال ولا لنا به يد إلا أن نخلي بيته وبين ما جاء له فإن هذا بيت الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه فهو بيته وحرمه وإن يدخل بيته وبين ذلك فوا ما لنا به قوة .

قال : فانطلق معي إلى الملك فرغم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض بنيه حتى قدم المعسكر وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب فأتاهم فقال : يا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال : ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشاً ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل فإنه لي صديق فأسألته أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويغطى خطرك ومنزلك عنده قال : فأرسل إلى أنيس فأتاهم فقال له : إن هذا سيد قريش صاحب غير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال وقد أصاب له الملك ما ظلمتي بغيره فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فإنه صديق لي أحب ما وصل إليه من الخير فدخل أنيس على أبرهة فقال : أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب غير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال يستأذن إليك وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسima وسيما فلما رأاه أبرهة أعظمه وأكرمه وكره أن يجلس معه على السرير وأن يجلس تحته فهبط إلى / البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه ثم قال لترجمانه قل له : ما حاجتك إلى الملك ؟ فقال له الترجمان ذلك فقال عبد المطلب : حاجتي إلى الملك أن يرد علي ما ظلمتي بغير أصابها لي فقال أبرهة لترجمانه قل له : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك وقد زهدت فيك قال عبد المطلب : لم ؟ قال : جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمكم لأهدمه لم تكلمني فيه وتتكلمني في ما ظلمتي بغير أصابتها ؟ قال عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل وإن لهذا البيت رباً سيمنعه قال ما كان ليمنعه مني قال فأنت وذاك فأمر بإبله فرددت عليه .

فلما ردت الإبل إلى عبد المطلب خرج فأخبر قريشاً الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول :

(يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنعوا منهم حماكاكا) .

(إن عدو البيت من عاداكا ... امنعهم أن يخربوا قراكا) .

وقال أيضاً :

(لاهم إن العبد يـ... نع رحله فامنعوا حلالك) .

(لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم غدوا محالك) .
(جروا جموع بلادهم ... والفيل كي يسبوا عيالك) .
(عمدوا حماك بكيدهم ... جهلا وما رقبوا جلالك) .
(إن كنت تاركهم وكع ... بتنا فأمر ما بدارك) .
(فلم أسمع بأرجس من رجال ... أرادوا الغزو ينتهكوا حرامك) .

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وعبأ جيشه وهياً فيله وكان فيلا لم ير مثله في العظم والقوة ويقال كان معه اثنا عشر فيلا .

فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بأذنه فقال : أدرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فإنك في بلد الحرام فبرك الفيل فبعثوه فأبي فضريوه بالمعول في رأسه فأبي فأدخلوه مهاجنهم تحت مراقه ومراقه فنزعواه ليقوم فأبي فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرون ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق فعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرام فبرك وأبي أن يقوم .

وخرج نفيل يشتد حتى صعد في الجبل وأرسل الحجر عليهم طيرا من البحر أمثلا الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار : حجران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمم والعدس فلما غشين القوم أرسلناها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحدا إلا هلك وليس كل القوم أصابت وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاؤوا منه يتتساءلون عن نفيل بن جبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال فصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل مهلك .

وبعث الحجر على أبرهة داء في جسده فجعل يتتساقط أنامله كلما سقطت أنملاه اتبعتها مدة من قبح ودم فانتهى إلى صناء وهو مثل فrex الطير فيمن بقي من أصحابه وما مات حتى انصدع صدره من قلبه ثم هلك .

قال الواقدي : وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يسر على الحرم فنجا والفيل الآخر شجع فحصب .

وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرأ أصحاب الفيل : أن فتية من قريش خرجوا تجارة إلى أرض النجاشي فدنوا من ساحل البحر وثم بيعه للنصارى تسميتها قريش الهيكل فنزلوا فأجروا نارا و Ashtonوا فلما ارتحلوا تركوا النر كما هي في يوم عاصف فبعثت الريح فاضطرم الهيكل نارا فانطلق المريخ إلى النجاشي فأسف غصبا للبيعة فبعث أبرهة لهدم الكعبة . وقال فيه : إنه كان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفي وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويستو بمكة وكان رجلا نبيها نبيلا تستقيم الأمور برأيه وكان خليلا لعبد المطلب فقال له عبد

المطلب : ماذا عندك هذا يوم لا يستغنى فيه عن رأيك ؟ فقال أبو مسعود : اصعد بنا إلى حراء فصعد الجبل فقال أبو مسعود لعبد المطلب : اعمد إلى مائة من الإبل فاجعلها ٠ وقلدها نعلا ثم أرسلها في الحرم لعل بعض هذه السودان يعقر منها شيئاً فيغضب رب هذا البيت فإذا خذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقرها وبعضاً جعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود : إن لهذا البيت رباً يمنعه فقد نزا تبع ملك اليمن صحن هذا البيت وأراد هدمه فمنعه ٠ وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيضا وعظمه ونحر له جزوراً .

ثم قال أبو مسعود : فانظر نحو البحر فنظر عبد المطلب : فقال : أرى طيراً بيضاء نشأت من شاطئ البحر فقال : ارمقها ببصرط أي قرارها ؟ قال أراها قد دارت على رؤوسنا قال : فهل تعرفها ؟ قال : فواً ما أعرفها ما هي بنجدية ولا غريبة ولا شامية قال : كا قدّها ؟ قال : أشباه اليعاسيب في منقارها حسّ كأنها حسّ الحذف قد أقبلت كالليل يكسّ بعضها بعضاً أمام كل رفقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق فجاءت حتى إذا حاذت بعسرك القوم وكدت فوق رؤوسهم فلما تواتفت الرجال كلها أهالت الطير ما في مناقيرها على من تحتها مكتوب في كل حجر اسم صاحبه ثم إنها انساعت راجعة من حيث جاءت فلما أصبحوا انحطوا من ذروة الجبل فمشيا ربوا فلم يؤنسا أحداً ثم دنووا ربوا فلم يسمعوا حساً فقالا : بات القوم ساهرين فأصبحوا نياً ما فلما دنوا من عسرك القوم فإذا هم خامدون وكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى يقع في دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقوعه فعمد عبد المطلب فأخذ فأسا / من فؤوسهم فحفر حتى أعمق في الأرض فملأه من أموالهم من الذهب الأحمر والجوهر وحفر لصاحبها حفرة فملأها كذلك ثم قال لأبي مسعود : هات فاختر إن شئت حفترتي وإن شئت حفترك وإن شئت فهما لك معاً قال أبو مسعود : اختر لي على نفسك فقال عبد المطلب إني لم آل أن أجعل أجود المتعاق في حفترتي فهو لك وجلس كل واحد منهما على حفترته ونادي عبد المطلب في الناس فتراجعوا وأصابوا من فضلهم حتى صاقوا به ذرعاً وساد عبد المطلب بذلك قريشاً وأعطيته المقادة فلم يزل عبد المطلب وأبو مسعود في أهلיהם في غنى من ذلك المال ودفعاً ٠ عن كعبته وبيته .

واختلفوا في تاريخ عام الفيل فقال مقاتل : كان قبل مولد النبي A بأربعين سنة .
وقال الكلبي : بثلاث وعشرين سنة .

والأكثرُون على أنه كان في العام الذي ولد فيه رسول A .

قوله D : { ألم تر كيف فعل ربك ب أصحاب الفيل } ؟ قال مقاتل : كان معهم فيل واحد وقال المضحاك : كانت الفيلة ثمانية وقيل اثنا عشر سوى الفيل الأعظم وإنما وحد لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم وقيل : لوفاق رؤوس الآي

